

أصدقاء من الجزيرة

obeikandi.com

من بعيد

أكتب هذا وما تزال ملء مسمعى أصدااء آتية من بعيد . . .
أصدااء قوية اسمر أدبي حافل : ملأ إحدى أمسياتنا في شرق
الجزيرة حين اجتمعنا بإخوتنا وعلماء « القطيف » ، وأدبائها
على ساحل الخليج .

* * *

كانت زيارتنا لهذه المنطقة النائية على غير موعد ، فها دار
بخلدنا ونحن نهياً للسفر إلى جزيرة العرب ، أننا قادرون على
أن نبلغ أقصى شرقها ، في رحلة لا تتجاوز خمسة عشر
يوماً ، لولا رعاية كريمة من جلالة عاهل الجزيرة ، هيأت
لنا أن نذهب حيث شئنا على متن الطائرة ، فطُويت لنا
الأبعاد واستطعنا أن ننقل من الحجاز إلى نجد فالأحساء
فالخليج العربي .

هنالك ذكرنا « القطيف » فيما ذكرنا ، ورأينا حقاً علينا أن نلم
بمكان لعب في تاريخنا الديني والسياسي والأدبي دوراً ذا بال .
وما كان يُغفر لنا أن نكون بالأحساء ثم لا نزور منطقة
البحرين التي كانت منزل « بكر بن وائل ، وعبد القيس »

وفي ربوعها نشأ شعراء فحول ، لهم في الأدب العربي مكان أى مكان ! ومن وراء مرتفع « الصَّمَان »^(١) الصخرى الذى يتوسط بينها وبين « الدهناء » فيعزلها عن « نجد » ، تسلت جموع « القرامطة »^(٢) في القرن الثالث الهجرى ، حتى إذا جاوزوا الأحساء اندفعوا كالعصار مارد ، يلقون الرعب في القلوب ويعيشون في الجزيرة فساداً ، يأخذون طوائف الحجيج عاماً بعد عام ، فيقتلون مسرفين في القتل ، ثم يعودون بالأسرى إلى هَجَرَ^(٣) . وما جاء القرن الرابع حتى كان زعيمهم « أبو طاهر الجنابى القرمطى »^(٤) يتسلق أسوار « البصرة » في نحو ألفين من رجاله ، ويغلب على الكوفة ويتسلم الأنبار ويفتاك بعسكر الدولة عدته بضع عشرات من الألوف ! .

(١) الصمان : مرتفع صخرى متاخم للدهناء . قيعانه عذبة المياه ، ورياضه معشبة . انظر معجم ياقوت ٢٨٣/٥ .

(٢) القرامطة : جماعة ثورية ، عاثت في الشرق الإسلامى فساداً في القرن الثالث الهجرى ودوخت الدولة العباسية .

(٣) هجر : قاعدة البحرين ، وكانت مقر القرامطة الذين أرادوا أن يجعلوها منها المركز الدينى للإسلام ، بدلا من مكة . راجع (تاريخ أبي الفدا ٩٠/٢ ، وبلدان ياقوت ٤٤٦/٨) .

(٤) أبو طاهر القرمطى : سليمان بن الحسن أبو سعيد . زعيم القرامطة مات بالحدري في هجر سنة ٣٣٢ هـ . راجع تاريخ أبي الفدا ٩٠/٢ .

أجل ، كان حقاً علينا ونحن في الأحساء أن نلم بالقطيف
ومنطقة البحرين ، فضينا ونحن نردد قول الشاعر :

وتركنَ « عنترَ » لا يقاتل بعدها

أهلَ « القطيف » قتالَ خيلٍ تنفع .

وقول الآخر :

نصحتُ لعبد القيس يوم « قطيفاً »

فما خير نصيح قيل لم يُتقبل ؟

فقد كان في أهل القطيف فوارسٌ

حاة إذا ما الحرب ألفت بكل كل !

اتجهت بنا السيارات إليها في الطريق الصحراوي المعبد من
ميناء « الدمام » ونحن نرنو في تأمل صامت إلى الصحراء
الممتدة ، وقد أذابت شمس الأصيل فيها أشعتها الذهبية الغاربة .
ولاحت لنا « القطيف » من بعيد ، واحة ناضرة على حدود
الصحراء ، وجنة خضراء على حافة القفر المجذب ، ومراحاً عامراً
شمالى « الربع الخالى » . وإذا ذلك بدأت السيارات تتعثر
في دروب ضيقة ، تحف بها البساتين عن يمين وشمال ،
وتجرى فيها الغدران فياضة بمياه العيون والآبار .

وتهادى إلينا نسيم المساء رخيًّا عليلاً معطراً بأريج الأزهار
 وشذا الثمار ورائحة العشب ، وانبثقت أضواء الشفق الوردى
 فتوجت هامات النخل الباسقات ، ثم نفذت من بين الفروع
 والأغصان ، واستلقت في وهن وتراخ على صفحة الغدير المتألق
 وفوق العشب الندى ، غير مكترثة لصراخ « الكلاكسون »
 ولا عابئة بنباح الكلاب في آثار القطعان .
 وكذلك استغرقنا نحن في خمول هنيء ، لم نكد نفيق منه
 إلا على هتاف أهل « القطيف » وقد خرجوا بمشاعلهم
 يستقبلون ضيوفهم أبناء النيل .
 ولم يكتفوا منا بحفلة الاستقبال في دار « الأمير حَمُود » ،
 أمير القطيف « أوجوة عابرة في المنطقة ، بل دعونا إلى مجلس
 حافل أعد لنا في بستان الوجيه « السيد عبد الله إخوان »
 أحد الأدباء الأعيان .

وكانت أمسية لا تنسى !

لم يبق في « القطيف » من لم يسع إلى مجلسنا هناك ليلقى
 إلينا كلمة تحية وعتاب :

أما التحية فلمصر العزيزة الغالية ، قبله أنظار الشرق
 العربى : ومهوى عقول أبنائه ، وكعبة الرواد والقاصدين من

طلبة العلم وراغبي الثقافة .

وأما العتاب فلاذباء مصر الذين نسوا أن في شرق جزيرة العرب واحة اسمها « القطيف » شاركت في صنع تاريخنا الإسلامي وتركت في تراثنا الأدبي أثرها الباقي .

إن « دارين » ^(١) ما تزال هناك ، ترجع صدى أغاني « النابغة الجعدي » ^(٢) و « الفرزدق » ^(٣) وغيرها من الشعراء الذين لم يجدوا ما يشبهون به تعرف الحبيبة أذكي من مسك إدارين . وإن بساتين « هجر » باقية حتى الساعة ، مثمرة غناء ، تبسم للضاربين في الصحراء ، وتعلمهم بالظل والثمر والماء ، كما كانت في قديم الزمان يوم ضرب العرب بها المثل فقالوا : « كحامل التمر إلى هجر »

(١) دارين : فرضة بالبحرين ، يجلب إليها المسك من الهند ، وقد تغنى الشعراء بمسكها . راجع (معجم ياقوت ٢/٣٧٥ ومعجم ما استمعهم للبكري ١/٣١٥) .

(٢) النابغة الجعدي : أبو ليلى ابن عبد الله - شاعر جاهلي مقدم ، أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم وأنشده شمرأ فدعا له ألا يفض الله فاه . راجع (طبقات الشعراء لابن سلام ٤٣ والأغاني ١/٥ ط دار الكتب) .

(٣) الفرزدق : همام بن غالب بن صعصعة . أحد أمراء الشعر الثلاثة في العصر الأموي ، وأبرعهم في الفخر . انظر (الأغاني ٩/٣٢٤ ط دار الكتب) .

وهناك ، ما تزال آثار من « الكعبة » تروى قصة ذلك الحلم
الأحق الذي راود « أبا طاهر النقرمطي » وزين له أن يجعل
من « هَجَرَ » واثرة لمكة ، فوافى البلد الحرام إبان موسم الحج
عام ٣١٧ هـ . ، ودخله في تسعمائة من شيعته ، فقتل أمير
الكعبة ، وفتاك بألوف من الحجيج في المسجد الحرام وفي فجاج
مكة ، وقلع باب الكعبة ، وانتزع « الحجر الأسود » ثم
اعتلى سطح البيت وهو بصبح :

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا !
قيل إنه قتل بفجاج « مكة » وظهرها زهاء ثلاثين ألف نفس ،
غير من سبي من نساء وغلان ، وأقام بمكة ستة أيام ثم عاد في
موكبه الحافل يحمل « الحجر الأسود » إلى « هجر » فبقى بها
هذا الأثر المقدس نيافاً وعشرين سنة ، حتى أعاده القرامطة إلى
مكة عام ٣٣٩ هـ . وهم يقولون :

— رددناه بأمر من أخذناه بأمره !

أما تستحق بلاد البحرين بعد هذا لفنة من أدباء مصر ،
وذا ربي التاريخ الإسلامي ؟

إنهم ليحجون إلى الحجاز ألوفاً ذات عدد كل عام ،
وإن منهم من ينتدب للعمل أو التدريس في الأحساء واليمن

والكويت وحضرموت ، فما ألمّ بالقطيف من كل أولئك زائر !
وهي على المهجر الأليم ، لا تكف عن ذكر مصر ، وتتبع
أخبارها العلمية والأدبية . بل هي في معزها الثائي المهجور على
ساحل الخليج ، تستورد البضاعة الأدبية من ضفاف النيل ،
وتعرف عن سير الفن والحياة بها ، وأعلام الأدب والفكر
فيها ، ما يجهله المصريون أنفسهم ، غير قلة من
الدارسين .

كم تأملت وأنا أصغى إلى حديث أدباء القطيف عن
معاركنا النقدية ومذاهبنا الفنية ؟! كم خجلت وأنا أرى في أيديهم
كتبنا ومجلاتنا ، نحن الذين لا نشعر بهم أو نلقى إليهم بالاً ؟
كم تأثرت وأنا أسمع الشاعر « عبد الرسول الجشي »
يعرفنا ببلده الذي هو قطعة من وطننا الشرق العربي :

هذي بلادى وهى ماض عامر
مجداً ، وآت - بالمشيئة - أعمرُ

ألقى عصاه على فسيح ضفافها
وعلى الجزائر ، عالم متحضر

وأذلت التيار تحت شراعها
فلها عليه تحكم وتأمر

وترى السفائن بالتوايل والحلى
والعطر من بلد لآخر تحمل

شهدت موانئ الهند خفق قلوبها
فكأنها فوق المياه الأنسر

ولها على وادى الفرات ودجلة
فضل المعلم وهو فضل يؤثر

وأنت «ربيعة» وهى غرة يعرب
وأذنها يوم الكفاح وأصبر

وأعزها جاراً وأكثرها قرى
إذ يحل البلد الحصيب ويقفر

فأنت بها الوطن الحصبة أرضه
للماء فيه تدفق وتفجر

والنخل وارفه الظلال كأنها
جيش كثيف بالخليج معسكر

تهدى لها الصحراء فى السحر الصبا
فتمر كالحلم اللذيد وتخطر

والبحر يهديها ، اللآلىء زينة^١
 وتجارة^٢ ، فيها الغنى يتوفر
 وكصفحة المرأة جو مشرق
 وكلوحة الفنان ريف^٣ مزهر

ورأت بها لغة العروبة بيئة
 شعرية توحى ، وجوًّا يسحر
 فإذا الضفاف نشائد مسحورة
 وكأنما فى كل حلق^٤ مِزهر^٥
 الملهَمون المبدعون تابَقوا
 فيها بمدرجة الخلود وشمروا
 شعراء « عبد القيس » تهزج بالهوى
 فيجيبها من « بكر » رهط^٦ أشعر
 فيها جنى « ابن العبد »^(١) أحلو شبابيه
 راح ، وريحان ، ووجه أقمر

(١) ابن العبد : طرفة ، الشاعر الجاهلى المشهور .

وخيال « خولة »^(١) يستثير غرامه

فيظل في أطلالها يتحسر

ولجعفر الخطي فن خالد

وروائع غنى بن السمر

على مثل هذا كان يدور السمر في أمسينا تلك ببستان
الأخ « السيد عبد الله إخوان » في القطيف والآن وقد
رجعت إلى مصر ، أرى حقاً على أن أنقل إلى قومي بعض
أصدقاء ذاك المجلس الأدبي ، ليعلموا أن على ساحل الخليج
في أقصى الشرق من جزيرة العرب . علماء مجتهدين وأدباء
ناهضين طموحين . يتطلعون إلى مصر ويهتفون باسمها ،
و« يعترفون » كما قال الأخ السيد حسن بن علي أبو السعود — بما
بيننا من روابط القرين واللغة والعقيدة ، ويكونون لأبناء الكنانة كل
تقدير ومودة ، ويرون في الثقافة المصرية المورد العذب النير .
روابط عزيزة تجاهلناها نحن فلم نؤد ما لها علينا من

(١) خولة : حبيبة طرفة ، وفيها يقول في مطلع معلقته :

خولة أطلال ببرة شهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقفا بها صهي على مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجلد

حق ، وتشبث بها إخواننا هناك : فما كادوا يروننا حتى هتف
مضيفنا الكريم :

« ليت هذه الزيارة التي طالما رنونا إليها ، تكون فاتحة
تعارف وهمزة وصل بيننا وبين مصر الشقيقة . وما أمس
حاجتنا إلى هذه الأخوة وذاك التعارف ، حتى نصبح - نحن
بنى الضاد - كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً ، وكالجسم
الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له سائر الأعضاء » .

وقال الأديب « محمد سعيد الشيخ الحيزي » :

« إن بيننا وبين الصفوة الأمناء من أدباء مصر ومفكرها ،
تياراً متصلاً في الفكر والروح ، مهما تناً بنا الديار ، وتفصلنا
بيداء وبحار :

إن القطيف ومصر شعب واحد
في المبدأ السامي وفي الأفكار

فتى نرى هذى الصفوف توحدت
ترى العدو بمارج من نار ؟ ! .

وقال الشاعر « محمد سعيد الجشي » :

هذى القطيف شيوخها وشبابها

هبت تحييككم بكل لسان

فلتخبروا « مصر » العزيزة أننا
 إخوان في الأوطان والأديان
 هذى ربوع العرب مهد واحد
 لا فرق بين بعيدها والداني
 وشعوبها أمم موحدة الحوى
 في كل ما يرى لرفع كيان

لبيكم أيها الإخوان الكرام ! هأنذى أبلغ الرسالة وأجبل أصدقاء
 ما سمعت منكم هناك ، فهل ترى يبلغ صوتي مسمع الأدباء
 والدارسين من بنى وطني ؟ !
 أرجو ، وآمل . . .
 وتحية طيبة ، يحملها هذا الكتاب إليكم وإلى أهل الجزيرة
 جميعاً . . .

من
 بنت الشاطي

هليوبوليس : مايو ١٩٥١

